



زيارة بشار الأسد بالنسبة لأصحابها مثل زبارة الأولياء وأصحاب الكرامات، حيث يزورهم الناس وقت الأزمات، عندما يكونون في "ضيقه"، ويمرّون بأوقاتٍ حرجة وصعبة، يذهبون إليهم على تلك الزيارة تساهم في فك أزمتهم، وإنها محنتهم، وعادة ما يعتبر هذا السلوك الورقة الأخيرة لدى أصحابه، بعد أن جربوا كل الطرق الأخرى من دون نفع .

منذ بداية الثورة السورية، أو بلغةً أدق، منذ بداية حرب نظام الأسد على الشعب السوري، وتحديداً بعد ضربه غوطة دمشق بالكيمائي(2013) ، وقتل آلاف المدنيين، بدأت تبرز ظاهرة تقاطر شخصياتٍ فنيةٍ وثقافيةٍ ونقابيةٍ وحزبيةٍ.. لزيارة الدكتاتور، بشار الأسد، والالتقاء به. وفي الغالب كانت تلك الشخصيات والوفود قادمة من بلاد عربية، ولعل أحدث تلك الزيارات، زيارة الفنان الشعبي المصري، شعبان عبد الرحيم، المعروف باسم شعبولا .

يتميز غالبية زوار بشار الأسد بأنهم شخصيات معروفة، وكانوا قبل عقد أو عقدين محسوبين على خانة المشاهير والنجوم، غير أن الأحوال تبدّلت لديهم، وباتوا، بأغلبهم، إن لم يكن جميعهم، مهّشين وشبه عاطلين من العمل، لفظتهم الشاشات والمنابر والمهرجانات والأضواء، أو أصبحوا غير فاعلين ضمن أطرهم الحزبية والنقابية، أو ربما لا يزالون في مناصبهم، لكن بدون أصوات، ويدون أي اهتمام خاص بهم، أي فقدوا كل أهمية لهم .

وبالعودة إلى تاريخ هؤلاء، ستجد أنّهم حاولوا، في السنوات الأخيرة، وجاهدوا للخروج من وضعية التهميش التي انحدروا إليها، لكن المتغيرات الهائلة على صعيد المهنة، والمزاج العام، والتطورات التكنولوجية، بالنسبة للفنانين والمتقفين، أو التغير في الاهتمامات السياسية والقدرة على مجاراة الرأي العام، بالنسبة للحزبيين والنقابيين، فرضت على هؤلاء التهميش، وكبّلت أيديهم ومنعهم من الخروج من هذه الوضعية القاتلة .

حسناً، ما علاقة هذا الأمر بزيارة بشار الأسد؟ من المعلوم أنَّ الأسد يرأس دولة مفلسة، وبالتالي ليس لديه ما يقدمه لهم، لإخراجهم من أزماتهم، كما أنَّه ليس الزعيم الجنوبي أفريقي، نيلسون مانديلا، ولا الزعيم الفلسطيني، ياسر عرفات، حتى يمنهم اللقاء به صفة الأحرار والمناضلين، فليس بشار الأسد أكثر من دكتاتور قاتل، وشخصية اببطاحية أمام إسرائيل، وفوق هذا وذاك فاسد أدار هو وأقرباؤه عمليات احتلالٍ هائلة، وشكّل ثرواتٍ ضخمة فضحتها وثائق بنما الشهيرة، ما يعني باختصار أنَّ لقاء شخصيات فنية وثقافية واجتماعية به هو فضيحة من العيار الثقيل، وهو حسم من أرصادهم لدى جماهيرهم، وليس مكسباً أبداً !

التفسير الأقرب لهذه الظاهرة، وبعد دراسة غالبية حالاتها، أنَّ هؤلاء الأشخاص وصلوا إلى درجة اليأس من إمكانية تعديل ظروفهم وأوضاعهم، وأنَّ القطار فاتهم، والتغييرات تجاوزتهم، ولم يعد ممكناً بالنسبة لهم استعادة أي شيءٍ من بريقهم السابق، وفي الوقت نفسه، هم أشخاصٍ طموحون، لا تزال طموحاتهم للشهرة والثروة تحرّكهم، لكنهم عاجزون عن الخروج من هذا الواقع الذي أوصلهم إلى الدرك الأسفل، وهم بحاجة لأنْ يتذكّرهم الجمهور والمنتجون والتلفزيونات والبرامج، بعد أنْ أغلقت كل الأبواب في وجوههم .

في هذه الحالة، لا يبقى أمامهم سوى الإقدام على فعل صادم، أو سلوك غير عادي، يشبه إلى حد بعيد التعرّي في ساحةٍ عامة لفت نظر الناس، وهم عندما يذهبون لزيارة بشار الأسد، ليس في بالهم دعمه ولا مساندته، بقدر أنَّ هدفهم يتمثّل في استغلاله جسر عبور للوصول إلى الفعل الصادم، واستثمار كلَّ رمزيته القدرة، وطاقة البشاعة الهائلة التي يمتلكها، لشحن فعلتهم بمزيدٍ من التحرّيض والاستفزاز، علَّ ذلك يعيدهم إلى الحياة العامة، ولو من باب السجال معهم، ولا بأس من أنْ تشكّل فعلتهم انتقاماً من المجتمعات التي همّشتهم، والظروف التي أوصلتهم إلى هذه الحالة .

اللقاء مع بشار الأسد بالنسبة لهؤلاء أشبه بحالة الانتحار "المثلية" التي يغامر مرتکبواها بالإحساس بشيءٍ من الألم، في مقابل أنْ يلقوهُ أنظار أشخاصٍ محدّدين، أو ينتقموا منهم، لإهمالهم لهم وعدم اهتمامهم بهم. وفي الغالب، يقدم زائرو بشار الأسد على هذه الفعلة وظهورهم للحائط، أي لا شيءٍ لديهم ليخسروه، بل يأملون أنْ تأتي لهم هذه المغامرة القدرة بفرصةٍ ما .

لكن بعض أنواع الزيارات، يكون الهدف منه النكأة بالخصوم والمنافسين، مثل زيارات بعض الشخصيات اليسارية والقومية، النقابية والحزبية، فهؤلاء في الغالب يستغلون الأسد للنكأة بتنظيم الإخوان المسلمين والأحزاب الإسلامية وبئاتهم الاجتماعية، هم إذن، يستخدمون بشار الأسد فزاعةً لهؤلاء. وفي هذا الوضع تحضر الشعارات التنويرية والتحرّرية، ومحاربة الجهل والإمبريالية... وتحضر معها بكثافة مصطلحات مثل "الدولة السورية" و"الجيش العربي السوري"، على الرغم من إدراهم أنَّ الدولة السورية لم يعد لها وجود، نتيجة احتلال أربع أو خمس دول لها، كما أنَّ الجيش العربي السوري بات يرطن بلغاتٍ إيرانية وباكستانية وأفغانية وهندية .

المنهارون، والمناكفون، يجمعهم اعتقادُ بأنَّ الربيع العربي، والثورة السورية، هما سبب ما وصلوا إليه من انهيار. بالنسبة للفئة الأولى، فقد سرقت الأضواء منهم، وابتعد الناس عنهم، وهم (الربيع والثورة) خطر مقيم بالنسبة للفئة الثانية، لأنهما قد يوصلان إلى السلطة أنماطاً جديدةً من القياديين والذئاب، وتسقط وبالتالي مبررات استمرارهم في المجال السياسي عقوداً طويلاً، من دون امتلاكهم غير شعارات فارغة تجاوزها الزمن .

زوار بشار الأسد مرشّحون للزيادة في الأيام المقبلة، هناك شخصياتٌ تلفظها التطورات والمتغيرات، وبعض هؤلاء استند جميع محاولات إعادته إلى الوسط، ولن يبقى لديه سوى السير على درب دمشق لارتكاب الفاحشة الأخلاقية الكبرى، فاحشة التعرّي في قصر المهاجرين، علَّ أحداً يتذكّرها، وهناك شخصيات ترى أنَّ الجماهير تبتعد عنها وتحاول للتيار الآخر، ولم يبق

أمامها سوى المرور على "كوبري" الأسد، نكأة بهؤلاء وبالخصوم.

المصادر:

العربي الجديد